



في أواخر القرن الأول من الهجرة ، وفي مدينة البصرة ، ولد بشار بن برد مكفوف البصر في أسرة فقيرة تمتحن لتعيش ، كان أبوه طياناً يضرب اللّبن ، وأخواه : بشر وبشير قصايين أما هو فكان مُعفى من أعباء الحياة نظراً لهذه الآفة التي تحول بينه وبين العمل وكان جده (يرجوخ) من سبي المهلب بن أبي صفرة^(١) ، واستقرّ ولاؤه في بني عقيل^(٢) ، العرب الأقحاح ، وعنهم وعن أعراب البصرة ارتشف بشار أفاويق البلاغة صبيّاً ، واستدر أخلافها يافعاً ، فشب فصيح اللسان ، واضح البيان ، نطق بالشعر وهو دون العاشرة فما أن بلغ الحلم حتى كان يُخشى من سلاطة لسانه .

نزعاته ونزغاته .

ذكر أبو الفرج أنه كان في البصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عُبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشار الأعمى ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم ابن أبي العوجاء ، ورجل من الأزدي ، فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي ،

أخذ بشار منذ حداثته يطلب لنفسه الكمال العقلي ، وفي البصرة حركة أدبية زاهرة ، قوامها جرير والفرزدق ، وأخرى علمية زاخرة ، دينية ولغوية وفلسفية ، ولما شب عن الطوق كانت له مشاركة فعالة في هذه وتلك ، وقد شهد مربد البصرة جانباً من شعره ، كما شهدت مجالس المتكلمين جانباً من

(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢٧١/١ دار الثقافة

(١) الاغانى (دار الكتب المصرية) ج ٣/١٣٩

أنشأها في ابراهيم بن عبد الله سبط الحسن بن علي - قائد الثورة في البصرة - من جياذ القصائد التي يعتز بها الفواطم بدأها بالتنديد بأبي جعفر المنصور . يقول :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم

ولا سالم عما قليل بسالم (٢)

فلما دارت الدائرة على الثائر العلوي خشي بشار على نفسه ، وحاول ان يساير الدولة الجديدة ، فكان أول ما فعله تغيير مجرى القصيدة ، وتوجيهها إلى (أبي مسلم) بدلاً من (أبي جعفر) (١) . وعبثاً حاول الاتصال بالخليفة أو بأخيه (العباس بن محمد) فقد كانا على علم بحقيقة أمره ومدى تنكّره للعرب ، ونقمته من بني العباس ، فاكتمنى بتوثيق صلته بوالي البصرة عقبة ابن مسلم بن قتيبة ، وكان أديباً أريباً ، جواداً سمحاً ، وداره متدنى الأدباء ومنتجع الشعراء ، ولم يكن عسيراً عليه ، وقد تألق نجمه في سماء الشعر أن يتصل بخالد البرمكي ، رأس البرامكة ،

ويختصمون عنده ، فأما عمرو ، وواصل فصاراً إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقي متحيراً مُحَلِّطاً ، وأما الأزدي فمال إلى السُّمْنِيَّة ، وهو مذهب من مذاهب الهند (١) .

رحل بشار إلى حرّان ليمدح الأمير سليمان بن عبد الملك ، فلما لم يُحسن مكافأته هجاه وعاد أدراجه إلى العراق . واتصل بيزيد بن هبيرة الوالي من قبل مروان الثاني ، ومدحه ببعض القصائد التي تعد من عيون الشعر العربي ، أشاد فيها بالقيسية فوصله يزيد وأكرم وفادته .

ولما ترامت الأنباء إليه بموت واصل بن عطاء سنة ١٣١ هـ عاد إلى البصرة لملاحة المعتزلة وفي سنة ١٣٢ هـ آلت الخلافة لبني العباس ، وأسفر ذلك عن مقتل ممدوحه (يزيد ابن هبيرة) فجزع عليه أشد الجزع ، وظل على ولائه للعلويين ، ولطالما ظاهرهم بشعره في ثورتهم على الدولة ، وقصيدته « الميمية » التي

(١) الاغاني ج ٣/ ١٤٦

(٢) الاغاني ج ٣/ ١٥٦ والديوان ج ٤/ ١٦٩

تظاهر بشار بالإسلام ، والإسلام منه براء ، يروى أنه سمع إحدى جواريه تغني بشعره فقال : (هي والله أحسن من سورة الحشر). والواقع انه كان مجوسي العقيدة ، دين آبائه وأجداده ، الا تراه يقدس النار ، ويصبو رأي إبليس في تفضيلها على الطين ، وإبائه السجود لآدم ؟ استمع اليه في قوله :

إبليس خير من أبيكم آدم
فتنبهوا يا معشر الفجار^(٢)
إبليس من نار وآدم طينة
والأرض لا تسمو سمو النار
وقوله :

الأرض مظلمة والنار مشرقة
والنار معبودة مذ كانت النار^(٣)

وفي عقيدته ومذهبه يقول الجاحظ:
يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة بعد
الرسول صلوات الله عليه ، لأنها حادت
عن الجادة . فلما سئل عن الامام علي
تمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وأحد كبار الدعوة لبني العباس ، وتظاهر
البرمكي - أول الأمر - بالازورار عنه سترًا
لموقفه ، فهما على دين واحد ، وان
دينهم الحق أن تقتل العرب ، كما قال
نصر بن سيار لابن أبي هبيرة .

فلما كانت أيام المهدي ، وكان
خفيف الوطأة على العلويين لانشغاله
بمناهضة الزنادقة استبشر بشار خيرا
لنفسه ولشعره ، وقد صدقت فراسته ،
وتحقق حلمه إذ لم يمض غير قليل حتى
كان الشاعر الأثير في البلاط ، ولكن
الدهر لا يدوم على حال وما زالت الايام
شيمتها الغدر ، فقد لعبت الوشاية بينه
وبين الخليفة حتى غيّر قلبه عليه ،
فلما يشأ أثر العودة إلى البصرة ، وانتظم
في مجلس العالم اللغوي يونس بن
حبيب . ووجد في مدارس اللغة والشعر
برد العزاء ، ولكن عقيدته الفاسدة ،
ولسانه السليط جرًا عليه الوبال ، وكان
مقتله بين فكيه سنة ١٦٨ هـ بتهمة
الزندقة^(١) .

(١) الاغاني ج ٣/ ٢٤٩ ، وطبقات الشعراء لابن
المعتمر ٢١/ (٢) البيان والتبيين ج ٢
(٣) وفيات الاعيان ج ١/ ٢٧٣ ، والأغاني ج ٣/ ١٤٥

من عمل الابرار ولو شئت أن أجعل جوابك
شعراً لفعلت ، ولكن موعدك غداً في
(المربد) ، فخرج من الغد يريد
المربد ، فإذا رجل ينشد قصيدة كلها
فحش فسأل عنه ، فقيل له : هذا بشار
يقول فيك ، فرجع الى منزله من فوره
ولم يدخل المربد ابداً^(١) .

وما شر الثلاثة أم عمرو
بصاحبك الذي لا تصبحينا
أما أخلاقه فلم يكن باطنه خيراً من
ظاهره وهو القبيح الدميم الأعمى ذو
الوجه المجذور ، فضلاً عن أنه كان فظاً
غليظ القلب ، فاجراً ماجناً مستهتراً ،
إباحي النزعة كما سنرى .

شعوبيته

ولعل أقذع هجاء ما تفوّه به في حضرة
مجزأة بن ثور السدوسي ، حينما هاجه
أحد الاعراب بقوله : ما للموالي
والشعر ؟ .. يقول ابو الفرج : (دخل
أعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي
وبشار عنده ، وعليه بزة الشعراء . فقال
الإعرابي : من الرجل ؟ فقالوا : شاعر
فقال : أعربي هو أم مولى ؟ فقالوا : بل
مولى . فقال الإعرابي ما للموالي
والشعر ، فغضب بشار ، وقد أخذته
العزة بالإثم ، وسكت هنيهة ثم قال :
اتأذن لي يا أبا ثور ، فقال : قل ما شئت
يا أبا معاذ ، وتلك كانت كنيته ، فأنشد
قصيدته الرائية المفحشة التي خلع فيها
عذار الحشمة والوقار ، ومطلعها :

الشعوبية فرقة من العجم تحقر شأن
العرب وتستطيل عليهم بحضارتهم
العريقة ، وأمجادهم التاريخية ، وكان
بشار متعصباً على العرب ، متطرفاً في
عصبية ، وقد بلغ به الأمر أن كان
يحرّض قومه على نبذ الولاء . يقول أبو
الفرج : (إن رجلاً شريفاً من بني زيد
وقف على بشار وقال له : لقد أفسدت
علينا موالينا ! تدعوهم إلى الانتفاء منا ،
وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك
الولاء . وأنت غير زاكي الفرع ولا
معروف الأصل ... فقال بشار : والله
لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أزكى

وقيصر خالي إذا
عددت يوماً نسبي
كم لي ، وكم لي من أب
بتاجه معتصب
أشوس في مجلسه
يُجثي له بالركب
إنّا ملوك لم نزل
في سالفات الحقب
نحن ذوو التيجان والـ
ملك الأشم الأغلب

ولما امتعضت العرب مما آل اليه نفوذ
الموالي في هذا العصر ، أجابهم بشار
بقوله ، مخاطباً بني العباس :
أنصفتمونا فعاثوا حكمكم حسداً
والله يعصمكم من غلّ حساد
سطوا علينا بأنّ كنّا مواليكم
وعيّرونا بآباء وأجداد

خليلي لا أنام على إقتار
ولا آبي على مولى وجار^(١)
ولما فرغ من إنشادها ، قال مجزأة
للإعرابي ، فأنت كسبت هذا الشر
لنفسك ولأمثالك .

أما القصيدة التي عفا فيها لسانه إلى
حد ما ، ولم يتندر بالعرب الا قليلاً فهي
تلك البائية التي صرف أكثرها في الفخر
بآبائه الصيد من مرازمة العجم ، وفيها
يقول :

هل من رسول مخبر
عني جميع العرب
من كان حياً منهم
ومن ثوى في الترب
بأنني ذو حسب
غالٍ على ذي الحسب
جدي الذي أسمو به
كسرى . وساسان أبي

أحين كسيت بعد العربي خزاً
ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع
بني الاحرار؟ حسبك من خسار
(الديوان ، جمع ابن عاشور ص ٢٩٩) والاغاني ج

(١) وفيها يقول :
أنا ابن الأكرمين أبا وأما
تنازعني المرازب من طحار
إذا انقلب الزمان علا بعد
وسفل بالبطاريق الكبار



وقد نرى عار قوم في أنوفهم
ونترك العيب ، اذ ليسوا بأنداد
لولا الخليفة أنا لا نخالفه
لقد دلفنا لإروادٍ بإرواد
حتى ترونا وعين الشمس فاترة
في كوكب كشعاع الشمس وقاد
نحسُّ نيران حرب غير خامدة
تحت العجاج بأرواح وأجساد
هناك ينسون مروانا وشيعته
ويطرقون حذار المنصل العادي
إنّا سراة بني الأحرار وفرنا
ركض الجياد وهزّ المفصل البادي
سُقنا الخلافة، تحدوها أسنتنا^(١)
والقاسطون على جهد وإسهادٍ
ولقد حدّث عن نفسه فقال : «دخلت
على المهدي فقال لي : فيمن تعتدُّ يا
بشار ؟
فقلت : أما الزّيّ واللسان فعريان ،
وأما الأصل فأعجمي كما قلت :
وبئْتُ قوماً بهم جنّة
يقولون : من ذا ؟ وكنت العلم

ألا أيها السائل عني جاهداً
ليعرفني ، أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامر
فروعي. وأصلي قريش العجم^(٢)
أما مذهبه السياسي فكان متلوّناً ، وإن
تظاهر بالشيّع لآل البيت ، شأنه في ذلك
شأن غيره من العجم ، أما رأيناه يمدح
العلوي الثائر بالبصرة - ابراهيم بن عبد
الله بن الحسن بن علي - ويهجو الخليفة
أبا جعفر في ميميته التي غير مجراها بعد
هزيمة صاحبه ابراهيم ، ولم ينس أن
يفخر بأجداده الفرس ويشيد بأمجادهم
وبلائهم في الحروب بقوله :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم
ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار نفتحم الردى
ونصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوجّ
عظيم ، ولم تسمع بفتك الأعاجم
لحا الله قوماً رأسوك عليهم
وما زلت مرؤوساً خبيث المطاعم

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٠ ، ٣١

(١) الديوان ج ٢ / ٣٠١

أقوم لبسّام عليه جلالة
غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى
جهاراً . ومن يهديك مثل ابن فاطم ؟
سراج لعين المستضيء ، وتارة
يكون ظلاماً للعدوّ المزاحم^(١)
وكان طبيعياً أن يحفظ الفرس له هذا
الصنيع ، فلما عاد اليهم النفوذ ،
بانتصار المأمون على أخيه الأمين ،
أكرموا أولاده . وقد سعى إلى ذلك بنفسه
طاهر بن الحسين ، قائد المأمون .

شعره وشاعريته

لم يكن بشار كغيره من مخضرمي
الدولتين الذين ورثوا الأساليب القديمة ،
ثم نهجوا نهجها لا يبعثون عنها حولاً ،
بل كان من أولئك الشعراء المتصرفين
الذين يحتكمون إلى أذواقهم فيما
ينظمون وفيما يذهبون .

كان ذكي القلب ، حاضر الذهن ،
خصب الخيال ، كما كان طليق النفس ،

حرّ التفكير ، يقلد القدامى حيناً ،
ويخالفهم حيناً آخر ، وهو لا يقلد إلا عن
ميل ، ولا يخالف إلا لغاية ، تقوده في
ذلك فطرة سليمة ، ونفس شاعرة
خلّاقة ، كما كان كذلك ذا شخصية
مستقلة واضحة ، تجلت في تقليده
وتجديده ، ولعل هذا ما حدا بالأصمعي
أن يقول : «بشار خاتمة
الشعراء»^(٢) وبأبي عبيدة أن يقول : «أشعر
المحدثين السيد الحميري وبشار» .

أما ابن رشيق فقد أشار في مواضع
عدة إلى أنه أول من فتن البديع ، يعني
بذلك تجميل الأساليب بالصور
الخيالية ، والمحسنات اللفظية ، فمن
شعره التقليدي قوله :

لعبدة دار ما تكلمنا الدار
تلوح مغانيها كما لاح أسطار
أسائل أحجاراً ونؤياً مهتماً
وكيف يُجيب القلب نؤى وأحجار ؟
وما كلمتني دارها إذ سألتها
وفي كبدي كالنقط شبت به النار

(٢) الأغاني ج ١٤٣/٣ ، ١٥٠

(١) الأغاني ج ١٥٦/٣ ، ١٥٧ والديوان ج ١٦٩/٤

وعند مغاني دارها لو تكلمت
حولہ : اتي قائل بيتاً فمن أجازہ فله جُنبتي
لمكتب بادي الصباة أخبار^(١) هذه ، وقال :

ومن التجديد في غزله قوله :
وهاجرة نصبت لها جبنني
وكأن رجع حديثها
يقطع ظهرها ظهر العظاية
قطع الرياض كسين زهرا
فابتدر بشار قائلاً :

وكأن تحت لسانها
وقفت بها القلوص ففاض دمعي
هاروت ينفث فيه سحرا^(٢) على خدي ، وأقصر واعظايه
ومظاهر التجديد هنا تتجلى في اختيار
الأوزان القصيرة الرقيقة ، والصور
البيانية ، وسهولة الألفاظ ، وتجنب
الغريب .

والحق أن بشاراً كان مطبوعاً على
لم يدع بشار باباً من أبواب الشعر الا
قرض الشعر منذ حداثته ، يدعوه وهو في
طرقه ، ولا وترأ من أوتاره إلا داعبه ،
هجا فاقذع وأوجع ، وتغزل فأبدع
وأمتع ، ومدح فأشاد وأجاد ، ووصف
فأفتن وابتكر ، وافتخر بأجداده العجم
العاشرة فلا يتأبى عليه ، ويطلبه فيخضع
له ، بأوزانه وقوافيه ، ولا أدل على ذلك
من أنه كان يرتجل في المعنى الضيق ،
والقافية العسرة فيأتي بالعجيب
فحرك سكينه العرب ، أما مراثيه فهي
المعجب . ذكروا ان المنصور ركب
ذوب العاطفة ، وأما حكمه وأمثاله فهي
وليدة التجارب وثمره الخبرة .
كان الغزل أظهر فنونه الأدبية ،
هجيناً في وقت الهاجرة ، فجعلت
الشمس تلمع بين عينيه ، فقال لمن

(٣) الأغاني ج ٣ / ١٧٩

(١) الديوان جمع ابن عاشور ج ٤ / ٦٤ ، ٦٥

(٢) المرجع السابق ج ٤ / ٥٥

محصنات وغير محصنات ، أبكاراً
وثيبات فإن (عبدة) من بينهن كانت
القرية الى قلبه الأثيرة عنده ، وكان لا
يكف عن ذكرها ، فمن ذلك قوله (٣) :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم
ونفى عني الكرى طيفُ ألم
وإذا قلت لها : جودي لنا
خرجت بالصمت عن لا . ونعم

نفسِي يا عبدُ عني واعلمي
انني يا عبدُ من لحم ودم
إن في بردي جسماً ناحلاً
لو توكأت عليه لا نهدم

ألا تراه في ذلك متيماً شفه الوجد ،
وعذبه الهجر والصدّ حتى براه الحب
وأصبح جلدأً على عظم ؟

هذا أهون ما كان من بشار الأعمى ذي
النزعة البوهيمية الجامحة التي زينت له
أن يتخذ لنفسه مجلساً يدعى (البردان)
يحضره الغزلات من النساء ، فيحادثهن
ويحادثنه ، ويعشق من بينهن صاحبة

وميدانه الأصيل الذي بدّ فيه معاصريه ،
ولم يُشَقْ له غبار ، غير أنه في تشبيهه كان
يجنح أحياناً كثيرة إلى العبث والمجون ،
ونُحِيل القارئ في ذلك الى الديوان .
ويبدو أن أولى صبواته كانت مع جارية
مغنية تدعى فاطمة ، سمعها تغني فهوّمها
وعشقها من صوتها اذ كان أعمى ، وفيها
يقول :

درة بحرية مكنونة
مازها التاجرُ من بين الدرر
عجبت (فطمة) من نعتي لها
هل يجيد النعت مكفوفُ البصر؟ (١)

وقد أجابها في موضع آخر بقوله الذي
ذهب مثلاً :

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا: بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم
الأذن كالعين توفي القلب ما كانا (٢)
ومع أنه عشق بعدها الكثيرات ،

(٣) المرجع السابق ج ٤ / ١٦٦

(١) الديوان ج ٤ / ٦٨ ، ٦٩

(٢) المرجع السابق ج ٤ / ١٩٤ ، ١٩٥

الصوت الرخيم فإذا ما انصرفت أرسل
غلامه في أثرها ، فإذا أبت قذفها
بفاحش القول ، وفي ذلك يقول مالك
ابن دينار (ما شيء أدعى لأهل هذه
المدينة من الفسق من أشعار هذا
الأعمى) ويقول أبو عبيدة (وأي حرة
حصان تسمع غزل بشار ولا يؤثر في
قلبها ؟ ، فكيف بالمرأة الغزلة التي لا
هم لها الا الرجال) .

يا منظرًا حسنًا رأيته
من وجه جارية فديته
بعثت اليّ تسومني
بُردَ الشباب وقد طويته
أمسكتُ عنك وربما

عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى
وإذا أبى شيئاً أبيته
ومخضّب رخص البنا
ن بكى عليّ وما بكيته
قام الخليفة دونه
فصبرت عنه وما قلّيته
ونهانني الملك الهما
م عن النساء وما عصيته (٢)

وإذا تركنا جانب الغزل الى الهجاء
نجد أن هذه الآفة التي ذهبت ببصره وهو
صغير ، جعلته موضع العطف من أهله
وذويه ، وأن هذا العطف كان له اثره

ذكروا ان المهدي حينما سمع قوله :
قاسِ الهمومَ تنلُ بها نُجْحاً
والليل إن وراءه صباحا
لا يُؤسِّنُكَ من مخبّأة
قولٌ تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة
والصعب يمكن بعد ما جمحا

وكان غيوراً ، هدهد وتوعده وقال له :
أتحض الناس على الفجور ؟ وتقذف
المحصنات المخبات ؟ والله لئن قلت
بعد هذا بيتاً لآتينّ على روحك .

ومع هذا الوعيد والتهديد فقد استطاع

السيء في خلقه ومسلكه ، فقد هام على وجهه في أودية الضلال ولا رادع يردعه ، ومن ثم شبَّ جريئاً متبجحاً ، سليط اللسان ، فاحش القول ، وما كاد يبلغ الحلم كما يقولون حتى كان (مخشي معرة اللسان)^(١) اثر عنه قوله : (هجوت جريراً فاستصغرنى ، ولو هجاني لكنت أشعر أهل زماني)^(٢) وحقاً لقد انطلق لسانه بالهجاء وهو صغير ، وكان إذا هجا قوماً جاءوا الى أبيه شاكين ، فيضربه ضرباً شديداً ، فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبي الضرير !! أما ترحمه ! فيقول لها : بلى . والله اني لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه اليّ ، فلما سمع الفتى منه ذلك قال : يا أبت إن هذا الذي يشكونه مني هو قول الشعر ، واني ان ألممتُ به أغنيك وسائر أهلي ، فإن شكوني اليك فقل لهم : أليس الله يقول : ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ ؟ فلما عاودوه شكواه قال لهم ما قاله بشار ، فانصرفوا وهم يقولون : (والله ان فقه بُرد لأغيظ لنا

من شعر بشار)^(٣) .

اتخذ بشار من الهجاء سلاحاً يشهره في وجه من يتقص قدره او يحجم عن وصله وقلما سلم من لسانه أحد ، والهجاء عنده طريق الغنى ، ودونه في ذلك المديح ، وذلكم هو قوله : (من أراد من الشعراء ان يكرم في دهر اللثام على المديح ، فليستعد للفقر ، وإلا فليبالغ في الهجاء ، ليُخشى فيعطى) فما اشبهه في ذلك بالحطيئة ، وكلاهما كان وضع الأصل ناقماً من المجتمع إلا أن بشارا اتخذ من الهجاء أيضاً صوراً فنية يحذو فيها حذو شعراء النقائض من أمثال جرير والفرزدق والأخطل ، فقد ولد ونشأ في عنفوان حركتهم الأدبية في مريد البصرة وشهرتهم طبقت الآفاق ، ومن ثم كانوا مثله الأعلى ، وحدث ان استمنح العباس بن محمد فلم يمنحه ، فهجاه بقوله :

ظل اليسار على العباس محدود
وقلبه أبداً بالبخل معقود

(١) الأغاني ج ٣ / ١٤٤ ، ١٤٩

(٣) المرجع السابق / ٢٠٨

(٢) المرجع السابق / ١٤٥

إن الكريم ليخفي عنك عسرتَه
حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل
زرق العيون عليها أوجه سود^(١)

إذا علمت هذا ، وعلمت أيضاً أنه
كان من رؤوس الشعوبية المتعصبين
على العرب فاعلم أيضاً ان له فيهم
أهاجي مقدعة نفث فيها كل ما في
نفسه القاتمة من شرور وسموم كما
رأينا . وفي الأغاني من ذلك الكثير .

هذا ومن يجود في مجال الهجاء يجود
أيضاً في مجال الفخر والتطاؤل على
الخصوم ، ومن ذلك قوله في إحدى
المعارك التي دارت بين أميره عمر بن
هيرة والخارجين على الدولة .

وجيش كجنع الليل يزحف بالحصى
وبالشوك والخطى حمراً ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها
تطلعننا ، والطلل لم يجز ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه
وتدرك من نجى الفرار مثالبه

بعثنا لهم موت الفجاءة ، إننا
بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا : فريق في الإسار ، ومثله
قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه
إذا الملك الجبار صعر خذه
مشينا إليه بالسيوف نعاتبه^(٢)

أما الرثاء فقد كان أقل فنونه كمّا
وحجماً ، شأن كل سادر في غيّه ، غارق
في لهوه فإذا مسته اللوعة واعتصره
الهم ، أتى بما يذيب النفوس حسرت ،
يقول أبو الفرج (توفي لبشار ابن فجعز
عليه أشد الجزع ، فقيل له : أجر
قدمته ، وذخر أحتزرتة فقال : وولد
دفتته ، وثكل تعجلته ، وقال يرثيه :

أجارتنا لا تجزعي وأنيبي
أتاني من الموت المطل نصيبي
بني على رغمي وسخطي رزثته
وبدّل أحجاراً وجمال قليب
كأنّي غريب بعد موت محمد
وما الموت فينا بعده بغريب
صبرت على خير الفتور رزثته
ولولا اتقاء الله ، طال نحبي

(١) المرجع السابق/١٩٥

(٢) الأغاني ج ٣/٢٣٧ والديوان ج ١/٣١٥ ، ٣١٩

لعمري لقد دافعت موت محمد
لو أن المنايا ترعوي لطبيب
دعته المنايا فاستجاب لصوتها
وخلّ الهوينى للضعيف ولا تكن
نؤوما ، فإن الحر ليس بنائم^(٢)
وقوله :

فلله من داع دعا ومجيب
رزئت بُنيّ حين أورك عوده
وألقى عليّ الهم كل قريب
عجبت لإسراع المنية نحوه
وما كان - لو مُلِّتُه - بعجيب
نؤمل عيشاً في حياة ذميمة
أضرّت بأبدان لنا وقلوب
وما خير عيشٍ لا يزال مفجعاً
إذا انت لم تشرب مراراً على القذى
ظئمت ، وأي الناس تصفو مشاربه^(٣)

منزله الأدبية

أجمع الرواة والنقاد على أنه رأس
المحدثين المقدمين وأسبقهم إلى اصطناع
البديع ، وأول من جمع في شعره بين جزالة
القدامي ورقة المحدثين ، وفتق عن المعاني
الدقيقة والأخيلة البارعة ، سئل عنه
الأصمعي وعن مروان بن أبي حفصة ، أيهما
أشعر ؟ فقال : بشار ؛ لأن مروان سلك
طريقاً أكثر من يسلكه فلم يلحق من تقدمه ،
وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك
طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به ،
وهو أكثر تصرفاً ، وفنون شعر ، وأغزر
وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز الأوائل ،
وأما أقواله الحكيمة التي سارت مسرى
الأمثال ، فقد استمدّها من واقع الحياة ،
ومن تجاربه العديدة في حياته المديدة
المخضرمة ، نلمح ذلك في قوله :
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فإن الخوافي قوة للقوادم
وما خير كفّ أمسك الغلّ أختها
وما خير سيف لم يؤيد بقائم

(١) الأغاني ج ٣ / ١٦١ (٢) الديوان ج ٤ / ١٧٢ ، ١٧٣ (٣) الديوان ج ٤ / ٣٠٩ ، والأغاني ج ٣ / ٢٣٧

وسبق ان ذكرنا قول الأصمعي : (بشار
خاتمة الشعراء) .
وحدث بشار عن نفسه فقال : لي اثنا
عشر ألف بيت عين ، فقليل له : هذا ما لم
يدعيه أحد قط سواك ، فقال : لي اثنتا عشرة
الف قصيدة ، لعننا الله ولعن قائلها إن لم
يكن في كل واحدة منها بيت عين .
ولما قيل له : ليس لأحد من شعراء
العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته
العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وأنه ليس في
شعرك ما يُشك فيه . قال : ومن أين يأتيني
الخطأ ؟ ولدت هنا ، ونشأت في حجور
ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم
أحد يعرف كلمة من الخطأ . . . وأيفعت
فأبدت - أي خرجت الى البادية - إلى أن
أدركت ، فمن أين يأتيني الخطأ ؟
وفي إطرائه وبيان منزلته يقول علي بن
المنجم : سمعت ممن لا أحصي كثرة من
الرواة من يقول : أحسن الناس ابتداء من
الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول :
ألا عم صباحا أيها الطلل البالي
وهل يعمن من كان في العصر الخالي
ومن المحدثين بشار حيث يقول :
أبى طلل بالجزع أن يتكلما
وماذا عليه لو أجاب متيماً
وبالفرع آثار بقين وباللوى
ملاعب لا يعرفن إلّا توهماً^(١)
ولقي رجل أبا عمرو بن العلاء، فقال له :
يا أبا عمرو من أبدع الناس بيتاً ؟ قال الذي
يقول :
لم يطل ليلى ولكن لم أنم
ونفى عني الكرى طيفاً لم
رفهي يا عبد عني واعلمي
أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسماً ناحلاً
لو توكتأت عليه لا نهدم^(٢)
قال : فمن أمدح الناس ؟ قال الذي
يقول :
لمست بكفي كفّه ابتغي الغنى
ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت . وأعداني فأتلفت ما عندي^(٣)
قال : فمن أهجى الناس ؟ قال الذي يقول

رأيت السَّهْلَيْنِ استوى الجود فيهما

على بُعْدِ ذَا مِنْ ذَاكَ فِي حَكْمِ حَاكِمِ

سهيل بن عثمان يجود بماله

كما جاد به (الوجعا) سهيل بن سالم^(١)

قال : وهذه الأبيات كلها لبشار .

وقال الجاحظ : كان بشار شاعراً خطيباً

صاحب مشور ومزدوج وسجع ورسائل وهو

من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع

المفتنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه

وضروبه ، قال الشعر في حياة جرير وتعرض

له ، وحكي عنه أنه قال : هجوت جريراً

فاستصغرنى وأعرض عني ، ولو هجاني

لكنت أشعر الناس

مذهبه وشخصيته

لم يتطور الشعر في العصر العباسي دفعة ،

ولمّا ناله الكثير من مظاهر التجديد في

العصر الأموي على يد ابن أبي ربيعة في

غزله ، والوليد بن يزيد في خمرياته ، وذو

الرمّة في تشبيهاته ، والسيد الحميري في

تجنبه الغريب . . . وفي شعر بشار التقت كل

هذه الخصائص .

(أ) فهو في غزله يصطنع أسلوب ابن أبي

ربيعة القصصي ، ويتحدث عن تجاربه

الشخصية ويتخذ الأوزان القصار إجابة

لدواعي فن الغناء كقوله :

يا ليلة تزداد نكراً

من حُبِّ من أحببت بكراً

حوراء ان نظرت إليّ

ك سقتك بالعينين خمراً

وكفاك . اني لم أحط

بشكاة من أحببت خُبْراً^(٢)

(ب) وفي خمرياته يقتفي أثر الوليد

ابن يزيد ، سكير بني أمية ، وللوليد

أشعار كثيرة في الخمر وصفتها ، أخذها

الشعراء وضمنوها أشعارهم ، وبخاصة

أبو نواس .

(ج) وفي تشبيهاته ينهج نهج ذي

الرمّة إلا أنه صبغها بصبغة حضرية .

(د) وهو في تجنبه الغريب ، والبعد

عن التكلف ينزع منزع السيد

الحميري ، غير أنه كان يراوح بين

الجزالة والسهولة ، ولكل مقام مقال .
يروى انه حينما مدح مسلم بن قتيبة
بقصيدته الرائية التي أكثر فيها من
الغريب ، ومطلعها :

يقولون طال الليل والليل لم يطل
ولكن من يبكي من الشوق يسهر
بكرًا صاحبي قبل الهجير
إن ذاك النجاح في التبكير

سأله خلف الأحمر في ذلك فقال :
بلغني أن سلمًا الخاسر كان يتباصر
بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا
يعرفه ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا
معاذ مكان (إن ذاك النجاح) بكرًا
فالنجاح في التبكير ، لكان أحسن ،
فقال بشار : بنيتها أعرابية وحشية ،
فقلت كما يقول الأعراب البدويون ، ولو
قلت كما تقول : (بكرًا فالنجاح في
التبكير) لكان هذا من كلام المولدين ،
فقام خلف فقبل ما بين عينيه .

حمد الناس له هذا ، وتبعه بشار ففرح
الجميع بسهولة المأخذ ، وجمال
الايقاع ، يتجلى ذلك في قوله :
لم يطل ليلى ولكن لم أنم
ونفى عني الكرى طيف ألم
تجلت شخصية بشار في أخذه
وتقليده ، كما تجلت في ابتكاره
وتجديده فهو قد أخذ معاني السابقين ،
وحاكى أساليبها في جزالتها ، وتناولها
بالتهذيب أو الزيادة ، أو نقلها من حال
إلى حال كقوله فيمن أحب :

ليس شعر بشارٍ إذاً جديداً في
عناصره ومعانيه إلا في القليل ، غير أنه
تناول أساليب القدامى ومزجها بفنه
الخالص فبدت كأنها من مستحدثاته .
مريضة ما بين الجوانح والضنى
وفيهما دواء للعيون وداء^(١)
أخذه من قول الأعشى :

- وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها
وتبعه في ذلك أبو نواس :
دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء
● وقوله :
جَفَتْ عيني عن التغميض حتى
كأن جفونها عنها قصار^(١)
مأخوذ من قول جميل :
كأن المحب قصير الجفون
لطول السهاد ولم تقصر
يقول التُّجيبِي : وبيت بشار أحسن
فصار أحق به ، وتناوله العتابي فأفسده
بقوله :
في مآقي انقباض عن جفونها
وفي الجفون عن الآفاق تقصير
● وقوله :
يروِّعه السرار بكل شيء
مخافة أن يكون به السَّرار^(٢)
كأن فؤاده كرة تنزى
حذار البين ، لو نفع الحذار
- والبيت الأول مأخوذ من قول أشعب :
(ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننت أنهما
يأمران لي بشيء) .
وقد سبقهما إلى ذلك ابن أيوب
العنبري فقال :
لقد خفت حتى كل نجوى رأيتهما
أرى أنني من أمرها بسبيل
وجرير فقال :
تركوك تحسب كل شيء بعدهم
خيلاً تكرّر عليكم ورجالا
يقول الفضل بن اسحق : وأخذ أبو
نواس هذا المعنى بعينه من قول بشار
فقال :
تركنتي الوشاة نصب المِسِّـ
رّين ، وأحدوثةً بكل مكان
ما أرى خاليتين في السّرّ الا
قلت : ما يخلوان إلا لشاني
أما البيت الثاني فمأخوذ من قول
الفرزدق :
- وخافوك حتى القوم تنزو قلوبهم
كنزو القطا ضمت عليه الجبال

مأخوذ من قول زهير :
وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي
● وقوله :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت ، وأيّ الناس تصفو مشاربهِ (٣)
مأخوذ من قول النابغة :

ولست بمستبق أحاً لا تلمّه
على شعثٍ ، أي الرجال المهذب ؟
● وقوله :

قتلت السرّ كتماناً
وقتل السرّ أبقى له (٤)
من قول كثير :

كريم يमित السرّ حتى كأنّه
إذا استخبروه عن حديثك جاهل
أخذه المتنبي فقال : (وسرّكم في
الحشاميت) .

أوليّاته

كذلك تجلت شخصيته الأدبية في

ذكر التّجبي لهذا البيت نظائر عدة ،
وعلق عليها بقوله : « إلا أن بشاراً أغرب
بذكره الكرة ، وذكر علة الخفوق ، وذكر
أنه غير متنفّع بها . كل هذا في بيت
فكأنه استظهر شيئاً على الجماعة بتمكن
بيته في الصناعة » .

● وقوله :

وطال عليّ الليل حتى كأنه
لبيلين موصول فما يتزحزح (١)
سبقه إلى ذلك عدي بن الرقاع فقال :
فكأن ليلى حين تغرب شمسهِ
بسواد آخر مثله موصول .
● وقوله :

تجري على أحسابهم
والعود ينبت في لحائه .
مأخوذ من قول زهير :

وهل يُنبِت الخطى إلا وشيجه
وتُغرس إلا في منابتها النخل
● وقوله :

ترجو غداً ، وغدٌ كحاملةٍ
في الحيّ لا يدرون ما تلد (٢)

(٣) الديوان ج ١ / ٣٠٩

(٤) الديوان ج ٤ / ١٤٨

(١) الديوان ج ٢ / ١٠٤

(٢) الديوان ج ٣ / ٦٣

والنقاد يقولون : بيت بشار أصنع .

● قوله في الخمر :

شربنا من فؤاد الدّن حتى

تركنا الدّن ليس له فؤاد^(٢)

أخذه النظام - وينسب لأبي نواس -

فقال :

ما زلت آخذ روح الزق في لطف

وأستبيح دماً من غير مجروح

حتى اثنت ولي روحان في جسدي

والزّق، مُطَرَحاً، جسم بلا روح

● وقوله في الغزل :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته

وفاز بالطيّبات الفاتك اللهج^(٣)

أخذه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غمّاً

وفاز باللذة الجسور

كما أخذه ابو العتاهية فقال :

(فاجسر فإن أخوا اللذات من جسرا)

● وقوله في إنتهاب اللذات :

(معانيه المخترعة) التي تفصّح بها

الشعراء من بعده ، وقد أشار الى ذلك

التّجبيي - شارح المختار - ، وأبو بكر

الأصفهاني في كتابه (الزهرة) وغيرهما

من رواة الأدب وناقديه . من ذلك قوله

وهو من براعاته المشهورة :

كأن مُثار النّقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه^(١)

أخذه العتابي فقال :

تَبْنِي سَنابُكُها من فوق هامهم

ليلا ، كواكبه البيض المبائر

وقد جراه مسلم فقال :

في جحفل تشرق الأرض الفضاء به

كالليل أنجمه القضبان والأسل

وأخذه ابن المعتز فقال :

وعَمَّ السّماءُ النّقعُ حتى كأنه

دخان وأطراف الرماح شرار

كما أخذه المتنبّي فقال :

يزور الأعادي في سماء عجاجة

أسنّته في جانبيها الكواكب

دعيني أصب من متعة قبل رقدة
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة
تكاد بها نفس الشفيق تزول^(١)
من الراح فيما بيننا لم تسرب

أخذه المتنبي فقال :
تمتع من سهاد أو رقاد
كما أخذه ابن المعتز فقال :
ولا تأمل كرى تحت الرّجام
فلو ترانا في قميص الدجى
حسبتنا في جسد واحد

● وقوله :
فبتنا معاً لا يخلص الماء بيننا
إلى الصبح ، دوني حاجب وستور
حسبنا هذا القدر في بيان منزلته
أخذه علي بن الجهم فقال :
وإطراء بلاغة وبيان شاعريته . . . وحسبه
سقى الله ليلاً ضمّنا بعد هجعة
أن يكون أول من فتق أكمام البديع قبل
وأدنى فؤادا من فؤاد معذب
عصر البديع ، وأن يقال فيه : خاتمة
السابقين ، ورأس اللاحقين ، ولا غرو
فقد جمع في شعره بين جزالة القدامى
ورقة المحدثين .

الدكتور محمد نبيه حجاب